

المحاضرة الرابعة

ب - تطور عالمي التاريخ والسياسة

لم تكن النهضة الأدبية والعلمية سطحية في دراستها للظواهر والعلوم بل كانت متعمقة تعتمد التحليل والاستنتاج والبحث العلمي والتفكير المنطقي المتحرر من قيود ومسلمات العصور الوسطى. ولهذا لم يعد الناس يتقبلون.

وتحليله وبكل جراءة لوثيقة كنيسة كانت تعتبر سنداً قانونياً وتاريخياً تقوم عليه سلطة الكنيسة الدنيوية وهي وثيقة (هبة قسطنطين). لقد درس فالاً بعناية ودقة هذه الوثيقة بطريقة استعمال أسلوب البحث العلمي التاريخي وذلك بمقارنة الأسلوب الذي كتبت به هذه الوثيقة، فوجد أن أسلوبها يختلف عن أسلوب عصر قسطنطين في الكتابة فأثبت بطلانها.

لم يكتف فالاً بما توصل إليه بل استمر ينتقد مذاهب فكرية وعقائدية كانت شائعة ومسلم بها. وقد دعا أبناء عصره إلى إعادة النظر فيها. وأمام هذه الحقائق التي توصل إليها فالاً من خلال التحليل والاستنتاج اضطرت الكنيسة زمن البابا نيقولا الخامس إلى قبول ما توصل إليه هذا المؤرخ بل إنها عينته في مركز رفيع تقديراً لعلمه ولمنهجه الجديد في البحث التاريخي.

ومن المؤرخين الذين برزوا في هذه الفترة بشكل كبير هو ميكافيلي القاضي والمؤرخ والكاتب والدبلوماسي. نشأ في فلورنسا وحرص منذ صباه على تثقيف نفسه ثقافة تاريخية سياسية، وتعرف على علماء فلورنسا وجامعاتها ثم التحق بخدمة الدولة بصفة أمين سر المجلس الحاكم. وفي فترة الغزو الفرنسي لإيطاليا أوفدته الدولة عدة مرات إلى بلاط لويس الثاني عشر في فرنسا وإلى روما وأكثر المدن الإيطالية واتصل بأبرز قادة عصره، فاكنتسب خبرة كبيرة وحصل على معلومات.

وحتى العصر الذي عاش فيه. وقد دون ميكافيلي أفكاره على شكل نصائح يقدمها إلى أمير وطني تخيله منقذاً لإيطاليا من الانقسام والغزو الأجنبي. واضعاً نصب عينيه مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) في حكمه حتى وأن اختلفت الوسيلة مع المبادئ الخلقية الموروثة. فالأمير الصالح في نظر ميكافيلي هو القادر على اتباع كل الدولة القوية وينصح ميكافيلي الأمير أن يكون إنسانياً وطاغية في آن واحد، وإذا لم يكن كذلك فلا بقاء له. وعليه أن يكون مخادعاً متى اقتضت مصلحة الأمة ذلك، وأن لا يجهل كيف يتصل من الموائيق والعهود متى ما شعر أن مبرراتها قد زالت خاصة إذا رأى أن الاستمرار بالالتزام بها لن يكون في مصلحة الدولة. وينصح ميكافيلي الأمير أن لا يعطي الحرية للناس إلا بقدر معين لأنهم في كثير من الأحيان يسيئون استعمال الحرية ويستغلون مراكزهم. وأن يكون الأمير حازماً قاسياً في أسلوب حكمه للرعية

حتى يخشون بأسه ويحذرون بطشه، ويسعى في الوقت نفسه إلى إسعاد شعبه بإقامة المشاريع النافعة التي تدر عليهم بالخير وأن يمارس الفضائل التي يحبها الناس إذا لم يجد ضرراً في ذلك كأن يكون مخلصاً أميناً وفيماً، وبهذا يرهبه ويخافه الناس ويحبونه في آن واحد. ولا يلزم ميكافيلي الأمير بالالتزام بصورة دائمة بالفضائل لأنه سيجد نفسه في حالات كثيرة مكرهاً على خطيها أو تجاهلها، ومع ذلك فقد أوصى ميكافيلي الأمير أن لا يحرم الناس كلية من ممارسة الحرية في ظل طاعة الحكم لكي يأمن كراهيتهم ومؤامراتهم التي قد تدبر ضده. وأخيراً رأى ميكافيلي أن الدولة التي لا جيش لها ستكون معرضة للأخطار الداخلية والخارجية وعليه فعلى الأمير أن يجند جيشاً وطنياً يخلص له ويرهبه ويخدمه وأن يختار وزراءه وحاشيته من أفاضل الرجال وحكمائهم ويفتح بابه لأصحاب المواهب والكفاءات حتى تصبح حكومته مثالية تخشاهما الرعية وتلتف حولها.

لقد وجهت لكتاب الأمير في عصره وفي العصور التي تلتها وحتى الآن انتقادات عنيفة وقاسية لأنه تخطى قواعد الأخلاق وتجاهل الفضائل المسيحية ولأنه رأى في الجماهير وسيلة لتنفيذ أغراض الحاكم فقط. ومع هذا فإنه من المؤكد أن آراء ميكافيلي في كتابه الأمير كانت في عصر النهضة المرتكزات الحقيقية لأنظمة الحكم في أكثر بلدان أوروبا. ومن هذا المنطلق ومن منطلق إن الماضي يجب أن لا يحاكم بظروف الحاضر فإن كتاب الأمير يمثل واقع الحياة السياسية الأوروبية في مطلع العصور الحديثة.

ج - ظهور اللغات القومية وانتشار المعرفة

ذكرنا أن حركة احياء التراث تمسكت باللغة اللاتينية، فكان الانسانيون يصرون على تقليد الاسلوب اللاتيني القديم في كتاباتهم بسبب اعجابهم به ولكونه احد المقومات الاساسية للتراث. لذلك لم يحاولوا في بدء عصر النهضة استعمال الإيطالية، لغة الناس، باعتبارها لغة العوام ولكونها حسب رأيهم متخلفة غير قادرة على احتواء المعاني والافكار المعقدة، ولكن انتشار العلم والمعرفة بين مختلف فئات الايطاليين وخصوصا بعد اختراع الطباعة والاهتمام المتزايد الذي ابداه سكان المدن عامة بالعلوم والآداب والفنون، قد ادى الى ان يجد جماعة الإنسانيين انفسهم مدفوعين بقوة الى استعمال الإيطالية لأنهم وجدوا لكتاباتهم بها رواجاً وانتشاراً. لان جماهير المدن كانت تجهل اللاتينية بحكم صعوبتها وتعقيد قواعدها، فاصبحت الإيطالية لغة الادب والشعر والفلسفة. ولم يقتصر الأمر على ايطاليا وحدها، فقد فرضت

الفرنسية في القرن السادس عشر وجودها كلغة ادب وثقافة، وفي القرن نفسه فرضت اللغة الاسبانية نفسها في اسبانيا.

لقد كانت الكتب ولقرون عديدة احتكارا على الحكام والاثرياء ورجال الدين الا ان استخدام اللغات القومية وظهور الطباعة ساعد على نشر العلوم بمختلف صنوفها. وقد كان لانتشار التجارة وقيام المدن وسهولة الاتصال بين الناس اثره في عملية انتشار المعرفة. ولاشك ان الطباعة قد ادت الى ان تصبح الكتب رخيصة التكاليف فانخفضت تكاليف النشر الى الخمس مما ساعد على اقتنائها من قبل عامة الناس.

لقد تميزت اداب عصر النهضة بالكتابة التي تدخل السرور والاعجاب والتسلية على القارىء، ولم تهتم بوعضه، ولاقي المسرح اهتماما كبير من قبل ادباء النهضة، فحلت المسرحيات الكوميديّة، والمأساوية محل المسرحيات الدينية التي كانت من سمات الأدب في العصور الوسطى. اي انها كانت اكثر واقعية واقوى التقاء بالعواطف الحقيقية للانسان. وبهذا اصبحت الاداب قومية يعبر بها الاديب عن شخصيته وشخصية شعبه.

النهضة الفنية

انعكست حركة احياء التراث بشكل واضح في النهضة الفنية التي تجلت من خلالها معاني الفنون الجميلة. ان الحركة الفنية كانت موجودة في اوروبا منذ مطلع القرن الثاني عشر للميلاد حيث تقدمت وتطورت في العصور الوسطى بعض فنون النحت والعمارة، إلا أن الذي يميز النهضة الفنية عن الحركة الفنية في العصور الوسطى هو ان فن العمارة بالذات بدأ يأخذ اتجاهات جديدة بحكم تأثير موجة احياء التراث، يضاف إلى هذا ان النهضة الفنية تميزت عن الحركة الفنية في العصور الوسطى انها أكدت على الانسان من خلال النحت والرسم. فلم يعد الفن مجرد عملية استنساخ إلى قوالب معينة تفرضها الكنيسة وإنما أصبح تعبيراً حراً عن عقلية الفنان الذي تميز في عصر النهضة بكشفه النقاب عن جمال الآثار ومحاكاتها في الروح والتعبير وتميزه بالخلق والابداع. ولما كان الموضوع الاساسي لمرحلة النهضة هو الانسان فقد اتجه الفنانون من خلال النحت والرسم الى ابراز قوته وسيطرته. لقد ظهرت النهضة الفنية في ايطاليا مبكرة منذ القرن الخامس عشر ولعبت المدن الايطالية

دوراً هاماً في طريق تقدم الفنون لأنها كانت مراكز للحياة الفنية يتنافس حكامها على الظهور بمظهر رعاة الفنون ومالكي أكبر وأفخر مجموعة من النفائس الفنية، وكانت روما بطبيعتها على رأس المدن الإيطالية التي احتضنت الفن والفنانين، ذلك ان روما تمتلك تاريخاً وآثاراً ومجداً قديماً جعلت فنان عصر النهضة ينهل من وحي الماضي ممزوجاً بفكر الحاضر الحر لكي يقتبس ويبتكر. وقد ساعد بعض البابوات على ازدهار النهضة الفنية في روما فشيدت كنيسة القديس بطرس حيث تعاقب على تزيينها وزخرفتها كبار المعماريين والرسامين والنحاتين. ومن أشهر البابوات الذين استدعوا الفنانين البابا جول الثاني (1503 - 1563) والبابا ليو العاشر حيث تم في عهديهما تزيين قصر الفاتيكان الذي تجلى فيه أبدع ما لدى فناني عصر النهضة من نبوغ وعبقرية وخيال.

لم تقتصر رعاية الفنون على روما بل كانت ميلانو مهداً آخر لنشاط النهضة الفنية. وكذلك فلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية. ويمكن اعتبار فن العمارة والنحت والرسم الأساس الذي ارتكزت عليه النهضة الفنية في إيطاليا:

أ - فن العمارة:

يعتبر برونللسكي من أبرز معماري عصر النهضة في إيطاليا، فقد درس فنون العمارة الرومانية القديمة، وخصوصاً عمارة المسارح والمعابد وحاول أن يحيي بعضها في ابنية فلورنسا، وقد حقق ذلك في كاتدرائية المدينة التي بنيت آنذاك. وقد أصبح لهذا المعماري مدرسة انتمى اليها العديد من معماري عصره في إيطاليا فتهافتوا على دراسة مخلفات الرومان العمرانية وأساليب عمارتهم.

الا أن هؤلاء المعماريين لم يأخذوا من التراث كما هو ولم يقلدوه بشكل جامد بل جعلوا العمارة الجديدة في عصر النهضة معبرة عن روح العصر والبيئة، وتميز كل واحد منهم بطابع خاص، أي أنهم ربطوا الماضي بالحاضر فانتجوا فناً معمارياً يتميز به عصر النهضة عن غيره من العصور.

تجاوب حكام إيطاليا وكذلك البابوات مع المعماريين الإيطاليين ووضعوا تحت تصرفهم كل ما

احتاجوه من احوال و امكانات، واندفعت البابوية الى الحد الذي لم تعارض فيه تأثير المعماريين بالابنية الرومانية ذات الطابع الوثني مما اعطى المعماريين حرية مطلقة في العمل والابداع .